تلخيص سلسلة:

شرح لامية العَجم

-الشيخ: مصطفى مخدوم-

الفهرس

المُحاضرة الأولى

مُقدمة

الحكمة: اسم جامع لكل ما يمنع الإنسان من الوقوع في خطأ.

ومن مواطن الحكمة:

١- كتاب الله.

٢- سنة رسوله ﷺ.

٣- الشّعر، قال ﷺ: (إن من الشعر لحكمة).

وكان النبي ﷺ يستنشد الشعر، عن الشريد: (رَدِفْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقالَ: هلْ معكَ مِن شِعْرِ أُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيءٌ؟ قُلتُ: نَعَمْ، قالَ: هِيهْ، فأنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقالَ: هِيهْ، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقالَ: هِيهْ، حتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ).

وكان الصحابة ينشدون الشعر بين يدي رسول الله ﷺ.

التعريف بقصيدة لامية العجم

سبب التسمية: من باب المشابهة والمفاضلة والمناظرة بقصيدة لامية العرب للشنفرى، وهو رجل من عرب قطحان، وهي قصيدة جاهلية.

ونسبتها إلى العجم لكونها كاتبها أعجمي، من عجم أصفهان في بلاد فارس[١].

التعريف بالطّغرائي

أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الدؤلي الكناني المعروف بالطُّغْرَائِيّ.

[١] يقول عنها الصفدي: "أما فصاحة لفظها فيسبق السمع إلى حفظها، وأما انسجامها فيطوف منه بخمر الأنس جامها، وأما معانيها فنزهة معانيها"...

والطّغرائي نسبة إلى كتابة الطُّغرى، والطغرى هي الحاشية الافتتاحية التي تكتب في أعلى الصفحة، بداية الكتاب والخطاب.

ومن ألقابه: فخر الكتاب، والأستاذ، والمنشئ البليغ.

كان وزيرًا في آخر حياته، بعد أن عانى الفقر في بداية حياته، ثم قُتل ظلمًا.

ومن العلوم التي اعتنى بها: الكيمياء، وألف فيه كتبًا تصل إلى أربعة كتب.

أصالةُ الرأي صانتْني عن الخَطَلِ | وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ

- شرح الكلمات

- أصالة الرأي: من باب إضافة الصفة على الموصوف، والمعنى: الرأي الأصيل.

- الأصيل: الذي له أصل ثابت.

- صانتني: من الصيانة وهي الحفظ والرعاية.

ونسبة الصّيانة إلى الرأي من باب المجاز العقلي بعلاقة السببية، لأن الحافظ حقيقة هو الله عز وجل.

- الخطل: الاعوجاج والفساد.

ومنه: الأخطل، الرجل إذا كان في أذنه اعوجاج.

- الحلية: هي الزينة.

ومنه قوله عز وجل -عن المرأة-: (أومن ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين).

- العطل: هو الخلوّ، إذا خلا الشيء مما يتعلق به.

ومنه قوله تعالى: (وبئر معطلة) بمعنى أنها خالية عن روّادها، والرجل عاطل: أي لا وظيفة له.

- معنى البيت:

الرأي الأصيل صانني عن الوقوع في الخطأ في حياتي، والفضل والخلق الكريم صانني في وقت خلا فيه الناس عن كثير من الأخلاق والآداب.

والبدء بهذا البيت يحتمل أمرين:

١- التحدث بنعمة الله، قال تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث).

٢- إظهار التجلد ودفع شماتة الأعداء.

وفي البيت: مدح للرأي الأصيل، ومقصود الشورى: الوصول إليه.

مجدي أخيراً ومجدِي أوّلاً شَرَعٌ | والشمسُ رأْدَ الضُحَى كالشمسِ في الطَفَلِ

- شرح الكلمات

- مجدي: المجد: الشرف والرفعة.

ومنه: اسم الله المجيد.

-شرع: الشرع هو السّواء.

قوله: هم في هذا الأمر شرع، أي: سواء.

-رأد الضحى: أي أول الضحى، حينما تبدأ الشمس بالارتفاع.

ويقال له: الغزالة.

- الطفل: غروب الشمس (العشيّ).

وقد يُطلق على الليل، والمعنى الأول المشهور.

- معنى البيت:

أني ثابت على خلقي وشيمتي في أول عمري وآخره، ولم تغيّرني حوادث الزمن، ابتلاؤه ومجده[١].

فيمَ الإقامُة بالزوراءِ لا سَكَني | بها ولا ناقتي فيها ولا جَملي

- شرح الكلمات

- فيم: استفهام يقصد به التعجب.

- الإقامة: ضد السّفر.

- الزوراء: لفظ يُطلق على أكثر من موضع، والمُراد به في هذا البيت: بغداد، أو: موضعٌ فيها.

وسُميت بالزوراء: لازورار قبلتها، أي أنها مائلة، أو ازورار أبوابها.

- ناقة: أنثى الإبل.

---

[١] ولهذا قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي) أي ثابت على خلقه في بيته، مع أن له سلطانا على أهله، لا أن يكون شرسًا في بيته وخلوقا وكريمًا خارج بيته لأجل مصالحه.

والجمل: ذكر الإبل.

وقولهم: (لا ناقة ولا جمل) مثلٌ أول من قاله: الحارث البكري.

- معنى البيت:

أن الشاعر يتعجب من إقامته ببغداد مع أنه لا مصلحة له فيها ولا سكن.

ويُستفاد منه: يُحث الإنسان على السفر في طلب رزقه إن تعذر عليه طلبه في مكانه الذي هو فيه.

نَاءٍ عن الأهلِ صِفْرُ الكفِّ منفردٌ | كالسيفِ عُرِّيَ متناهُ من الخَللِ

- شرح الكلمات

- ناء: من النأي، بمعنى البعد.

كقوله تعالى: (وهم ينهون عنه وينئون عنه) أي: يبتعدون عنه.

أو: الإعراض

ومن معانيه: النهوض بثقل وتكلف، كقوله تعالى: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه) وقوله: (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة).

- صفر الكف: خال الكف.

- عُرّي: يعني جُرد.

ومنه قوله: (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى)

متناه: ظهراه وطرفاه.

- الخلل: البطانة والزينة التي تعلق على أجفان السيوف.

- معنى البيت:

أن الشاعر يصف ضيق حاله وبعده عن أهله، فيشبه حاله بالسيف الذي جُرّد من زينته وجفنه.

قال ابن زريق في فراقيته: "كأنما هو في حل ومرتحل - موكل بفضاء الله يذرعه".

فلا صَديق إليه مُشتكى حَزني | ولا أنيس إليه مُنتهى جَذَلي

- شرح الكلمات

- الصديق: الصاحب الذي صدق في مودته، وهو أبلغ من صادق، وأبلغ منها: الصدّيق.

- مشتكى: مصدر من الاشتكاء.

- حَزَني: بنفس معنى الحُزن.

- الأنيس: الجليس المؤانس، فليس كل جليس أنيس.

- جذلي: الجذل هو الفرح والسرور.

- معنى البيت

غاير الشاعر بين الأفراح والأحزان، فجعل منتهى الأحزان إلى الصديق، وجعل منتهى الأفراح إلى الأنيس.

المحاضرة الثانية

طالَ اغترابِيَ حتى حنَّ راحلتي | ورحُلها وقرَى العَسَّالةِ الذُّبلِ

- شرح الكلمات

- الاغتراب: التلبّس في الغربة، والغُربة: مفارقة الأوطان.

- حنّ: الحنين هو الشوق.

والأصل أن يقول الشاعر: (حنّت) ولكن جاز إسقاط علامة التأنيث لكون المؤنث مجازيًا.

- راحلتي: الراحلة هي ما يركبه الإنسان من الإبل، جمل أو أنثى، أي يستطيع أن يضع عليها الحمل لقوتها، قال ﷺ: (الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة)

- رحلها: الرّحل هو المركب الذي يوضع على الإبل.

ومنه قوله عز وجل: (وجعل السقاية في رحل أخيه).

ويُطلق الرحل على المركب الخاص للرجال، أما مركب النساء فيُقال له هودج، أو حِفّة.

- وقَرى: يُطلق على الظهر، لاجتماع العظام فيه.

وأصل مادة القرى: الاجتماع، ومنه: قرية، لاجتماع الناس فيها، ومنه: مقراة: التي يجتمع عليها الأكلة، ومنه: قرآن، لجمعه كلام الله عز وجل.

- العسّالة: الرماح.

وقد تُطلق في لغة العرب على بائعي العسل، أو على النحل نفسها.

قرى العسالة: أي أعالي الرماح.

- الذبل: الذابل هو النحيل، وهو يصف بذلك دقة الرماح وخفتها.

- معنى البيت:

وصف الشاعر لسفره واغترابه بالطّول، حتى أن رمحه ورحله وراحلته قد حنّوا لرجوعه بعد طول سفره.

قال ﷺ: (السفر قطعة من العذاب، فإذا قضى أحدكم نهمته فليرجع).

وضَجَّ من لَغَبٍ نضوي وعجَّ لما | يلقَى رِكابي ولجَّ الركبُ في عَذَلي

- شرح الكلمات

- ضجّ: من الضجيج، وهو الجلبة والصياح.

- اللغب: التعب والنصب.

ومنه قوله: (وما مسّنا من لغوب).

ويرى بعض العلماء -كالزمخشري- أن اللغوب هو الفتور الناشئ عن التعب والنّصب، واستدلوا بقول أهل الجنة: (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) والعطف يقتضي المغايرة.

- نضوي: النّضو هو الهزيل، والأكثر في لغة العرب أنه يُطلق على البعير.

- عجّ: من العجيج، وهو ارتفاع الصوت.

وأصل هذه الكلمة (العجيج) من الارتفاع، يُقال: العجاج، أي الغبار المرتفع في السماء.

سُئل النبي ﷺ عن أفضل الحج، فقال: (هو العجّ والثج) العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: نحر الأضاحي والهدايا.

-ركابي: الركاب ما يُركب من الإبل خاصة.

قال تعالى: (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب).

والركب: الجماعة الذين يركبون الإبل خاصة، قال تعالى: (والركب أسفل منكم) أي عير أبي سفيان.

- لجّ: أصل المادة (اللجاج) ويدل على التمادي والمبالغة، والتكرار، وتردد الشيء.

ومنه: لجة البحر، لأنه يتكرر المرة بعد المرة.

ومنه: اللجلاج، أي الرجل الذي يتردد في كلامه، وهو عيب في النّطق.

- عذلي: العذل هو العتاب واللوم.

- معنى البيت:

أن سفره طال، حتى أن جمله ضجّ من السفر، ورفاقه رفعوا أصواتهم ولجّوا في عتابه ولومه.

وهو يرى أن له مقصودًا عظيمًا لا بد أن يتحمل تجاهه هذه المصاعب.

أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها | على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي

- شرح الكلمات

- بسطة كف: كناية عن الغنى وكثرة المال.

كما تأتي كناية عن كثرة الإنفاق، كما قال تعالى: (ولا تبسطها كل البسط).

وأصل البسط: السّعة، كما قال تعالى: (وزاده بسطة في العلم والجسم).

وبضدّه: قبض الكف.

- على قضاء حقوق: أي أداء الحقوق.

- العلى: الرفعة والشرف.

- قِبلي: أي عندي، أي الحقوق التي في ذمتي.

- معنى البيت:

أن كل هذا السفر والترحال من أجل بسطة الكف، ويبين أنه لا يريد ذلك لجمع المال وطلب الدنيا، وإنما يطلبها لأداء الحقوق.

وطلب المال بنية أداء الحقوق، كصلة الرحم، وأداء الدّين، أمر محمود شرعًا.

وسمّى الله المال قيامًا، قال تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما).

وعن سعيد بن المسيب، أنه ترك دنانير كثيرة، فلما حضرته الوفاة، قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أجمعها إلا لأصون بها ديني، وأصل بها رحمي، وأكف بها وجهي، وأقضي بها ديني، لا خير فيمن لا يجمع المال ليكف به وجهه، ويصل به رحمه، ويقضي به دينه، ويصون به دينه».

وذكر أحمد من صفات المفتي: (الكفاية، وإلا مضغَه النّاس).

والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنعُني | من الغنيمةِ بعد الكَدِّ بالقَفَلِ

- شرح الكلمات

- الدهر: هو الزّمان.

كما قال الكفار: (وما يهلكنا إلا الدّهر)، وقال ﷺ: (لا تسبوا الدهر)

والغالب في استعمال العرب أنهم يستعملون كلمة (الدهر) على الزمان الطويل، بينما كلمة (الزمان) تُطلق على الزمان القصير أو الطويل.

- يعكس آمالي: أي يضادّها.

- ويقنعني: القناعة من الرضا، وتستعمل في العادة للرضا بالشيء القليل.

- الغنيمة: كل ما يحوزه الإنسان من المال.

وأكثر ما تستعمل في غنيمة الحرب، قال عز وجل: (واعلموا أنما غنمتم من شيء..).

- الكدّ: التعب والمشقة.

- القفل: من الرجوع والإياب.

ومنه: القافلة، والأصل فيه: إطلاقه على جماعة المسافرين الرّاجعين، ولكن أُطلق على جماعة المسافرين الذاهبين أيضًا من باب التفاؤل.

- معنى البيت:

أنه يسعى لتحقيق آماله، ولكن حوادث الدهر تعكسه، وتجعله يقنع من سفره بمجرّد الرجوع.

قال امرؤ القيس في بيت صار مثلًا بعد ذلك:

لقد طوّفتُ الأرض حتى | رضيت من الغنيمة بالإيابِ.

وذِي شِطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ | لمثلهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ

- شرح الكلمات

- شطاط[١]: طول القَوام.

وأصل كلمة (الشطط) تستعمل في البُعد، وتجاوز الحد.

ومنه قوله: (لقد قلنا إذا شططا) أي القول الذي تجاوز حد الصواب، ومنه قوله: (ولا تشطط).

- كصدر الرمح: شبهه بالرمح.

- معتقل: وهو وضع الرمح بين ساقه ورحله.

---

[١] تصح الشّين بالفتح والكسر.

- هيّاب: جبان.

-وكل: عاجز يكل الأمور إلى غيره.

- معنى البيت:

أن الشاعر يمدح صديقه بطول القوامة، ويشبهه بالرمح، وهو مع ذلك شجاع وقادر على تنفيذ الأمر.

حلوُ الفُكاهِةِ مُرُّ الجِدِّ قد مُزِجتْ | بقسوةِ البأسِ فيه رِقَّةُ الغَزَلِ

- شرح الكلمات

- الفكاهة: الدعابة والمزاح.

قال تعالى: (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) فتكون بمعنى الاشتغال بالفاكهة، وفي رواية: (فَكهون) وهي بمعنى الدعابة والسرور.

ومنه قوله: (فظلتم تفكهون).

- مزجت: خلطت.

- البأس: يأتي بمعنى القوة.

ومنه قوله: (والله أشد بأسًا)

ويأتي بمعنى الحرب، قال تعالى: (ولا يأتون البأس إلا قليلا).

- الغزل: هو الكلام الرقيق.

- معنى البيت:

يكمل الشاعر وصف صديقه، ويصفه في هذا البيت بالفكاهة والدعابة، مع البأس، ورقة الغزل، وفي هذا توازن شخصيته.

قال تعالى عن الصحابة: (أشداء على الكفار رحماء بينهم).

وكان رسول الله ﷺ حلو المعاشرة، سهل التعامل، وأما في الحرب: فكان شديد البأس، حتى أن أصحابه يستترون به.

قال ابن الوردي:

أنا مثل الماء سهلٌ سائغٌ | ومتى أُسخن آذى وقتل

أنا كالخيزور صعبٌ كسره | وهو لدنٌ كيفما شئت انفتل.

وفي البيت: ضرورة اختيار الصديق، خاصة في السّفر.

والمرء في السفر يحتاج كذلك إلى الفكاهة خاصّة، وقد وصف الشاعر صديقه بذلك، لأن السفر مظنة التعب والمشقة، ولذلك: كان كثير من الحِداء وإلقاء الأشعار في زمن النبي ﷺ يكون في أسفارهم.

المُحاضرة الثالثة

طردتُ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلتِه | والليلُ أغرَى سوامَ النومِ بالمُقَلِ

- شرح الكلمات

- طردت: من الطرد، وهو الإبعاد.

ومنه قوله عز وجل: (وما أنا بطارد المؤمنين).

-سرح: الشيء المُرسَل.

ومنه قولهم: "سرحت الإبل" أي أرسلتها في المرعى لترعى،

ومنه قوله: (حين تريحون وحين تسرحون)،

ومنه تسريح المرأة: أي تطليقها.

- الكرى: النّعاس، ويُطلق على النوم.

يقال: "كريان" نعسان أو نائم.

- وِرد: الإتيان إلى الماء.

ومنه قوله عز وجل: (فأوردهم النار).

وقد يُطلق على العطش، لأنه سبب الورد، ومنه قوله تعالى: (ونسوق المجرمين إلى جهنّم وردا) أي عطاشا.

- مقلتي: المقلة شحمة العين، التي تجمع البياض والسّواد.

- أغرى: الولوع بالشيء واللصوق به وملازمته.

ومنه قوله: (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) أي جعلناها ملازمة لاصقة بهم.

- سَوام: جمع سائمة.

ومنه: سائمة الإبل، وهي التي ترعى في المرعى بنفسها.

وأما السوامّ، بالتشديد: فهي الدوابّ السامة.

- معنى البيت:

يصف النوم وآثاره بالماشية التي تريد أن تأتي إلى الماء، وهو يطردها، أي يطرد النوم والنّعاس عن مقلته.

وأنه سهر مع رفيقه حتى طرد نومه عن مقلته، في ليلة أغرت الراكب بالنوم، لهدوئها وظلمتها.

والشاعر يعتذر عن تسهيره لصحابه ونقضه حقوقه بذلك: لكثرة همومه في صدره.

والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ | صاحٍ وآخرَ من خمر الهوى ثَمِلِ

- شرح الكلمات

- الركب: الراكبين جماعة من الإبل.

- الميل: جمع أميل، وهو الذي يتهادى على ظهر الدابة يمنة ويسرة.

- الأكوار: جمع كور، وهو الرّحل.

أي: الركب يميلون على الإبل من شدة النعاس.

- الطرب: خفّة تعرض للإنسان، إما بسبب الفرح، أو الحزن الشديد.

والمعنى الأقرب في هذا البيت: معنى الحزن.

صاح: مستيقظ، من الصحوة.

- الخمر: الشراب الذي يسكر، وشبّه أثر النوم بالسّكر لشدة تأثيره.

- ثمل: هو السّكران.

- معنى البيت:

يشير أنه سهر مع رفيقه وتحادث معه جزءًا من الليل، والركب الذين معهما هم بتلك الحالة من شدة النعاس، أو من شدة الحزن والتعب لطول السفر.

وفي هذا إشارة إلى شدة الهموم التي كان يحملها في صدره، والتي منعته من النوم.

فقلتُ أدعوكَ للجُلَّى لتنصُرَنِي | وأنت تخذِلُني في الحادثِ الجَلَلِ

- شرح الكلمات

- الجّلى: الأمر العظيم

- لتنصرني: من النصرة، وهي الإعانة.

- تخذلني: من الخِذلان، وهو ترك النّصرة.

قال تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن الذي ينصركم من بعده).

- الجلل: من الأضداد، فيطلق على الأمر العظيم، ويطلق على الأمر الصغير الهيّن.

قالت الصحابية الذي توفي أهلها حين رأت رسول الله ﷺ: (كل مصيبة دونك جلل) أي: هيّنة.

- معنى البيت:

أن الشاعر يعاتب صاحبه، وقد أراد أن ينام، فقال: أنا أدعوك إلى القضايا الكبرى فتنصرني، فمن باب أولى أن تنصرني في الأمر الهين، وهو أن تسهر معي.

تنام عيني وعينُ النجمِ ساهرةٌ | وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ

- شرح الكلمات

- تنام عنّي: عن هنا للمجاوزة، والمراد: تنام معرضًا عني.

- النجم: يُطلق على الكوكب، سواء كان مضيئا أو غير مضيء.

وإن أُطلق ولم يقيد: فيُحمل على نجم معين، وهو (الثريّا)، وهو ستة نجوم تظهر في أول الصّيف.

ويأتي أحيانًا بمعنى: النبات الذي لا ساق له، وفسر بذلك كثير من المفسرين قوله: (والنجم والشجر يسجدان).

- وقوله: عين النجم: من باب التجوز

- الساهرة: من السهر وعدم النوم.

وتأتي بمعنى: الأرض المكشوفة، ومنه قوله: (فإذا هم بالساهرة) وسُميت بذلك لأن السالك فيها يخاف، فيدفعه الخوف للسّهر.

- تستحيل: من الاستحالة والتغير.

- صبغ الليل: كناية عن سواد الليل.

- يحلِ: يتغير.

- معنى البيت

يكمل الشاعر عتاب صاحبه على خذلانه، وذلك لأن صاحبه تركه ساهرا لوحده، مع أن الليل بقي مظلمًا لم يتغير، بينما تغير صاحبه عن عهده، فكأن الليل سهر مع الشاعر، وصاحبه لم يسهر معه.

فهل تُعِيُن على غَيٍّ هممتُ بهِ | والغيُّ يزجُرُ أحياناً عن الفَشَلِ

- شرح الكلمات

- الغي: الجهل وترك الصواب.

وضده الرشد، قال عز وجل: (قد تبين الرشد من الغي).

ويطلق على الطيش والسفاهة.

- الفشل: يطلق في أصل اللغة على الضعف.

وهو المعنى المستعمل في القرآن الكريم، ومنه قوله: (ولا تنازعوا فتفشلوا) أي: تضعفوا.

- معنى البيت

يحرض الشاعر صاحبه على نصرته، بأنه همّ على غيّ، سيفسره في الأبيات القادمة.

وكأن الشاعر يقول لصاحبه: انصرني عن الأمر الذي هممت به ولا تفكر في العواقب، لأن التفكير في العواقب كثيرًا يُضعف المرء.

وكلما عظم أمر المرء وهمّه: كلما احتاج إلى النصرة.

إنّي أُريدُ طروقَ الحَيِّ من إضَمٍ | وقد رَماهُ رُماةٌ من بني ثُعَلِ

- شرح الكلمات

- طروق الحي: إتيانه ليلًا.

ومنه قوله: (والسماء والطارق) وهو النجم الثاقب، سُمي بذلك لكونه يأتي ليلا.

ونهى رسول الله ﷺ الرجل أن يطرق أهله ليلًا، أي يأتيهم ليلًا.

- الحيّ: بطن من القبيلة.

- إضم: وادي ما بين ينبع والمدينة، كان يسكنه حي من بني جهينة.

- بنو ثُعل: بطن من قبيلة طيء، وكانوا مشهورين بجودة الرماية.

المُحاضرة الرابعة

يحمونَ بالبِيض والسُّمْرِ اللدانِ بهمْ | سودَ الغدائرِ حُمْرَ الحَلْي والحُلَلِ

- شرح الكلمات

يكمل الشاعر الحديث عن بني ثعل:

- يحمون: من الحماية، وهي المنع.

- البيض: أي السيوف البيض.

- السّمر: أي: الرماح.

وهذا من باب حذف الموصوف والاكتفاء بالصّفة.

قال شاعر عن السّيوف:

ولقد ذكرْتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ | مني وبيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي

وقال الآخر عن الرماح:

ذكرتك والخطِّيُّ يخطر بيننا | وقد نهلت منا المثقَّفَةُ السمرُ.

- اللدان: جمع لدن، وهو الهّين.

قال الشاعر: وهو لدن كيفما شئت انفتل.

- سود الغدائر: أي الضفائر السّود.

وكان من عادة النساء ضفر الشعور، وبعض الرجال أيضا، فإذا بدأ الحرب نشروا ضفائرهم، من باب إرعاب العدو.

قال ربيعة الرأي مادحًا: (لقد رأيت مشيخة المدينة وإن لهم لغدائر وعليهم الممصر والمورد في أيديهم مخاصر، وفي أيديهم آثار الحناء في هيئة الفتيان، ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد على دينه).

- حمر الحلي: أي الحلي الحمر.

والحلي جمع الحلّة، وتطلق على ما كان جزئين، لأن أحدهما يحل فوق الآخر، كالرداء والإزار.

- معنى البيت

أن الشاعر يمدح هؤلاء القوم، ويصفهم بالغيرة على نسائهم، اللواتي هنّ صاحبات الغدائر السّود والحليّ الحمر، فيحمونهنّ بالسيوف والرماح، وفي هذا مدح لهم بالغيرة.

فسِرْ بنا في ذِمامِ الليلِ مُهتدياً | بنفحةِ الطِيب تَهدِينَا إلى الحِلَلِ

- شرح الكلمات

- الذّمام: العهد والحرمة والحق، وسُميت بذلك: لأن من ضيعها استحق الذمّ.

- معتسفا: من الاعتساف، وأصله الجور والظلم.

- نفحة الطيب: أي رائحته.

وأصل مادة كلمة (النفحة) من الانتشار.

وتُطلق على الشيء اليسير، كقولهم: نفحه بالسيف، أي ضربه ضربة خفيفة، وكقوله عز وجل: (ولئن مسّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين).

- الحلل: جمع الحلة، وهو الموضع الشي ينزله النّاس.

- معنى البيت

أن القوم الذين ذكرهم الشاعر إذ كانوا بهذه الشجاعة والقوة: فينبغي له السير في الليل إذا، ليكون أخفى عن عثونهم

ويقول: سر بلا تخطيط ولا دليل، فإن رائحة الطيب الصادرة من بيوت القوم ستهدينا إليهم.

فالحبُّ حيثُ العِدَى والأُسدُ رابضَةٌ | حَول الكِناس لها غَاب من الأَسَلِ

- شرح الكلمات

- فالحِبّ: الفاء للتعليل.

والحِب: هو الحبيب، ولذلك كان لقب أسامة بن زيد: (الحِب وابن الحِب) أي حبيب رسول الله ﷺ.

- العِدى: الأعداء.

- رابضة: من الربض، وهو الجلوس بالمكان والمكث فيه.

ويُستعمل هذا اللفظ لذوات السّباع، وذوات الحافر، كالسّباع.

- الكِناس: هو مكان الظبي والبقر الوحشية التي تستر فيه وترجع إليه.

ومنه قوله عز وجل: (والجوار الكنّس) أي النجوم التي تذهب وتختفي.

- الأسلِ: هي الرّماح.

- معنى البيت:

يعلل الشاعر السير في الليل، بأن المحبوب في موضع محوط بالأعداء، وشبّه محبوبه بالظبي في الكناس الذي تحيط به الأُسد الرابضة.

وفي هذا بيان لصعوبة الوصول إلى المحبوبة.

نؤمّ نَاشئة بالجِزع قد سُقيت | نِصَالها بمياه الغُنجِ والكَحَل

- نؤمّ: نقصد.

ومنه قوله تعالى: (ولا آمين البيت الحرام).

- ناشئة: أي امراة ناشئة.

- بالجزع: وسط الوادي أو منعطفه.

- نصالها: أطرافها.

- الغُنج: الدلال والتكسّر، وهذا مما تُمدح به المرأة.

- الكحل: سواد الأجفان خِلقة وطبيعة.

قال المتنبي: (ليس التكحل في العينين كالكَحلِ).

- معنى البيت

يصف الشاعر محبوبته بأنها حديثة السن، وأنها تمتاز بالغُنج والدلال والجمال.

قد زادَ طيبَ أحاديثِ الكرامِ بها | ما بالكرائمِ من جُبنٍ ومن بُخُلِ

- شرح الكلمات

- الكرام: جمع كريم، والكرائم: جمع كريمة.

والكريم من الشيء: خيره وأفضله.

- بها: أي عنها، والباء هنا بمعنى عن، كقوله تعالى: (فاسأل به خبيرا) أي: عنه.

- جبن: الخوف والجزع.

- البخل: المنع.

- معنى البيت:

الكرام عندما يتحدثون عن هذه المرأة الحسناء يزيد كلامهم حسنًا أنهم يتحدثون عن جبنها وبخلها.

وهذا مذهب لبعض العرب: أنهم يمدحون الجبن والبخل في المرأة.

تعقيب: هذا مدحٌ ما ذمّه الله ورسوله ﷺ، وقد مُدحت أسماء رضي الله عنها بالكرم والشجاعة، وقال النبي ﷺ لزوجاته: (أسرعكن بي لحاقا أطولكن يدا).

ولكن: ربما قصد الشاعر بالبخل: أي بخل نفسها عن الغرباء، مما يعني حيائها وعفتها، وهذا محمود.

تبيتُ نارُ الهَوى منهنَّ في كَبِدٍ | حرَّى ونار القِرى منهم على القُلَلِ

- شرح الكلمات

- تبيت: البيات هو المكث بالليل.

قال تعالى: (أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا أو هم نائمون).

- الهوى: الحب.

- منهن: أي نساء الحي.

- حرّى: حرارة الشوق.

- القرى: الضيافة.

- منهم: أي رجال الحي.

- القلل: جمع قلة، وهي الشيء المرتفع.

وهذا من المبالغة في وصفهم بالكرم، حيث يوقدون بالأماكن العالية.

- معنى البيت

يمدح الشاعر رجال الحي ونسائهم بأن لهم نارين: نار الهوى، فتُحب نسائهم ويولع بهنّ، ونار القرى والضيافة التي يوقدها الرجال.

يقتُلنَ أنضاءَ حبٍّ لا حَراكَ بها | وينحرونَ كرامَ الخيلِ والإِبِلِ

- شرح الكلمات

- أنضاء: جمع نضو، وهو الهزال.

- ينحرون: من النحر، وهو ضرب المِنحر.

والمنحر: ثغرة في أعلى الصّدر تُطعن فيها الإبل والخيل وهي قيام.

وقد يُطلق على الذبح.

- معنى البيت

يمدح الشاعر نساء الحي بجمالهنّ، بحيث يصيبون الرجال بالهوى والعشق، حتى تصير أجسامهم هزيلة من العشق.

ويمدح رجال الحي بأنهم يضيّفون على كرام الإبل والخيل.

يُشفَى لديغُ الغوانِي في بُيوتهِمُ | بنهلةٍ من لذيذِ الخَمْرِ والعَسَلِ

- شرح الكلمات

- اللديغ: الذي لدغته العقرب أو الحية.

- العوالي: الرماح.

- بنهلة: شربة.

- الغدير: الماء المتبقي من السيل، وسمي بذلك لأن الماء غادره.

- معنى البيت

يصف الشاعر الذي أصابته الرماح والسيوف في الحرب في ذلك القوم: بأنه يُشفى بشربة مما عندهم من العسل والخمر.

وهذا من باب الحقيقة أو الكناية.

وربما يقصد بالخمر والعسل: ريق النساء.

لعلَّ إِلمامةً بالجِزعِ ثانيةً | يدِبُّ فيها نسيمُ البُرْءِ في عللِ

- شرح الكلمات

- لعل: لفظ يفيد الترجي، وهو يفيد به الهدف من كل هذه الحملة التي يريد بها زيارة الحي.

- إلمامة: زيارة المكان دون إطالة.

- بالجِزع: منعطف الوادي أو طرفه.

- يدبّ منها: أي يمشي فيها، والدبيب: المشي الخفيف.

- النسيم: الهواء العليل.

- البرء: الشفاء.

- العلل: الأمراض.

- معنى البيت

يبدي الشاعر العذر عن كل ما سبق من التدبير والتفصيل، ويعلل ذلك بأنه يريد شفاء قلبه من علل الأمراض والهَوى.

ويبالغ، فيقول أن مجرد الإلمامة ينشأ عنها الشفاء من كل العلل.

المحاضرة الخامسة

لا أكرهُ الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ | برشقةٍ من نِبالِ الأعيُنِ النُّجُلِ

- شرح الكلمات

- الطعنة: الضربة بالرّمح.

وقد تُستخدم في الثّلب المعنوي، كقوله تعالى: (وطعنوا في دينكم).

- الأعين النجل: الأعين الواسعة، وهذه صفة ممتدحة.

- شُفعت: قُرنت وزوُجت، وهو ضدّ الوتر.

-شرقة: رمية.

- النبل: السّهام.

- معنى البيت

يقول الشاعر: لا أمنع من أن أطعن بطعنة نجلاء -قويّة-، لكن بشرط أن تُقرن هذه الطعنة بنظرة من الأعين الواسعة الجميلة، أي أعين المحبوب.

والمعهود: أن الألم إذا صاحبه لذّة أكبر منه فإن صاحبها لا يشعر بالألم، كما في تقطيع النّسوة أيديهن عند رؤية يوسف عليه السلام.

ومما يستدل به الشعراء على صدق محبتهم: ذكرهم للمحبوب في مواطن الشدّة، كما قال عنترة:

ولقد ذكرْتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ | مني وبيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي.

وقد أمر الله المؤمنين في القتال بذكره ﷻ، قال: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تُفلحون).

ولا أهابُ صِفاح البِيض تُسعِدُني | باللمحِ من صفحاتِ البِيضِ في الكِلَلِ

- شرح الكلمات

- لا أهاب: لا أخاف.

ومنه: الهيوب: الجبان.

وقد تأتي أحيانا بمعنى الإجلال والتعظيم، ومنه: «الهيبة».

قال مجنون ليلى:

أَهابُكِ إِجلالاً وَما بِكِ قُدرَةٌ | عَلَيَّ وَلَكِن مِلءُ عَينٍ حَبيبُها.

- الصّفاح: جمع الصّفاحة، وهي الصخور العريضة.

وقد تأتي بمعنى السيف العريض، فهو الصفيح، والجمع صفائح، وهو المقصود في البيت.

- تسعدني باللمح: أي حالة إسعادها بهذه الرؤية.

- اللمح: النظرة السّريعة، وإن أضيفت إلى البصر كانت أبلغ في السرعة، قال تعالى: (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

- خلل: الفرجة بين الشيئين.

- الأستار: جمع ستر.

- الكِلل: جمع كِلّة، وهي الستر الرقيق.

- معنى البيت

يقول الشاعر أنه لا يخاف السيوف العريضة إن كانت محبوبته تسعده بنظرة عابرة من بين الكلل والأستار التي هي محجوبة ومتسترة بها.

ولا أَخلّ بغزلان أَغازلها | ولو دَهتني أُسود الغِيل بالغِيَل

- شرح الكلمات

- لا أخلّ: لا أقصّر.

- الغِزلان: جمع غزال، وهو ولد الظّبي.

ويُقال له: شادن، فإن برز قرنه يُقال له ظبي.

وتشبيهه للمرأة بالغزال يقصد به الجمال والرشاقة والنّشاط.

كما في قول المشركين حين رأوا المسلمين يرملون في الطواف: (إنهم يرملون كالغزلان) أي في نشاطهم.

- أغازلها: الغزل: محادثة النساء بالكلام الرقيق.

- دهتني: أي أصابتني الداهية، والداهية: المصيبة العظيمة.

- الغيل: الشجر الملتف المجتمع، وأُطلق على عرين الأسد، لأن الأسد يتخذه مسكنه فيه.

- الغيل: جمع غائلة، وهي المصيبة.

- معنى البيت

أنه لا يترك محادثة المحبوب حتى لو نزلت عليه المصائب الشديدة.

حبُّ السلامةِ يُثْني همَّ صاحِبه | عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ

- شرح الكلمات

- السلامة: البراءة من الآفات، والبعد عن الأضرار.

- يَثني: يعطف ويقصر ويكفّ.

- همّ صاحبه: عزمه.

- المعالي: الأمور الشريفة.

- يغري: الإغراء هو الولع بالشيء واللصوق به.

- الكسل: الفتور والتثاقل.

وتجعل العرب الكسل صفة ممدوحة بالمرأة، فيقولون: كسلاء، ومِكسال، وكسلة، لأنها تشير إلى أن المرأة مخدومة، فلا تحتاج لأن تعمل وتقضي حوائجها.

- معنى البيت

الإنسان إذا غلب عليه حب البعد عن الآفات، فإن هذا سيدفعه عن طلب معالي الأمور، واكتساب الشّرف، ويغريه بالكّسل.

قال الشاعر: المجد سهل والطريق إليه بالإجماع وعرُ

فالذي يطلب معالي الأمور لا بد أن يجدّ ويجتهد، ولا يقنع بالأمور الصّغيرة.

وقال الشاعر:

وكن عن الراحة في معزل | فالصفع موجود مع الرّاحة.

وكذلك الأمم، فالأمة التي لا تريد أن تضحّي تبقى ذليلة، قال رسول الله ﷺ: (ويُوضعُ في قلوبِكم الوهنُ، قالوا: يا رسولَ اللهِ وما الوهنُ؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ).

ورأى صاحب كتاب: (لماذا تأخّر المسلمون وتقدمّ غيرهم؟) السبب الرئيس لتخلف الأمة الإسلامية: أنها لا تريد أن تضحي.

فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقاً | في الأرضِ أو سلَّماً في الجوِّ فاعتزلِ

- شرح الكلمات

- جنحت إليه: ملت إليه.

قال تعالى: (وإن جنحوا للسلم) أي مالوا للسلم.

- النفق: الطريق في باطن الأرض.

ومنه: النفاق، لأن للمنافق دين يستره.

- الجو: الفضاء بين الأرض والسماء، ويُطلق على الأماكن المرتفعة.

ويسمي العرب أهل نجد واليمامة: أهل الجو، لكون أرضهم مرتفعة.

ويُطلق أيضا: على داخل الشيء.

- فاعتزل: من الاعتزال، وهو ترك المخالطة.

- معنى البيت

إذا ملت إلى حب السلامة فاتخذ نفقا في الأرض، لأن السلامة في الدنيا أمر معجوز عنه، فهي مجبولة على الكدر والمصائب.

ودَعْ غمارَ العُلى للمقدمين على | ركوبِها واقتنِعْ منهن بالبَلَلِ

- شرح الكلمات

- غمار: أصل المادة (الغمر) تدل على الكثرة، ومنه قيل على الأقوال: غمرات، قال تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت).

- المقدمين: من الإقدام، وهو الإقبال على الأمور بلا تردد.

- القناعة: الرضا بالشيء اليسير.

- البلل: الماء اليسير.

قال المتنبي: أنا الغريق فما خوفي من البلل.

- معنى البيت

يقصد الشاعر: إذا تركت طلب المعالي فاذهب إليها، واترك طلبها لأهل الجد والعزم، واقتنع أنت بالشيء اليسير.

وقيمة المرء بقيمة أهدافه، وإذا عرف المرء قيمة ما يطلب، هان عليه ما يبذل.

قال أبو فراس الحمداني:

تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا | وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ.

المحاضرة السّادسة

يرضَى الذليلِ بخفضِ العيشِ يخفضُه | والعِزُّ عندَ رسيمِ الأينُقِ الذُلُلِ

- شرح الكلمات

- الذليل: ضدّ العزيز، وهي المهانة ونزول القدر.

- خفض العيش: سعته، ورغده، ولينه.

وهذه الكلمة يُطلقها العرب على غير المعهود.

- مسكنة: عجز وفقر.

-رسيم: الرسيم هو المشي السّريع، كأن الماشي يرسم آثاره على الأرض لسرعته.

ومنه: الناقة الرسوم، أي سريعة المشي.

ومنه: الصحابي الذي اسمه: رسيم العبد، وله حديث النبذ في الأوعية.

- الأيُنق: جمع قلّة لناقة، وأصله: أنوُق، ولكن وقع فيه قلب وإبدال.

- الذلل: جمع ذلول، والذلول: الناقة السّهلة التي لا تجمح براكبها.

ويُقال أيضا: أرض ذلول، قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا).

- معنى البيت

أن رضا الإنسان وركونه إلى الدعة وترف العيش، وترك السعي لمعالي الأمور: نقصٌ وعجز بصاحبه.

وأما من أراد العزة والشرف: فلا ينبغي له أن يرضى بالسكون إلى الذلة.

وقد ترك رسول الله ﷺ بلده مكّة، وهاجر إلى المدينة، ليستطيع إقامة دينه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

فادرأْ بها في نحورِ البِيد جافلةً | معارضاتٍ مثاني اللُّجمِ بالجُدَلِ

- شرح الكلمات

- ادرأ: ادفع.

قال تعالى: (قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

- نحور: جمع نحر، والنحر: أعلى الصّدر، موضع القلادة.

ومنه: نحر الإبل، أي ضربها في ذلك الموضع.

ومنه: عالم نحرير، كأنه نحر العلم نحرًا من ذكائه وعلمه.

- البيد: الصّحراء.

- جافلة: مُسرعة.

ومنه قوله: (انجفل إليه الناس) أي أسرع إليه الناس.

ومنه: الدّعوة الجفلى، أي المفتوحة التي يسرع إليها النّاس.

وإن كانت: (حافلة) فمعناها: مجتمعة.

- معارضات: جمع معارضة، ومعناها المسايرة والمساواة والمشابهة.

ومنه: معارضة الشّعر.

- مثاني: أصله من الثني وهو العطف والتكرار.

ومنه: السّبع المثاني.

- اللجُم: جمع لجام، وهو خطام الدابة الذي تُقاد به.

مثاني اللجم: أي ما انعطف منها على عنق الدابة.

- الجُدُل: جمع جديل، وهو الخطام المفتول بشدّة الذي تقاد به الدابة.

- معنى البيت

ادفع عن نفسك الذلة، وابتغِ العزة، بالانتقال ومواجهة الأخطار، وعارِض بين لجام الخيل وخطام الدابة، أي: أكثر التنقل، والمقصود بهذا أن الإنسان يأخذ كل أسباب العزة والمكانة، ولا يركن إلى العجز والضعف ودعة العيش.

إن العُلَا حدَّثتِني وهي صادقةٌ | في ما تُحدِّثُ أنَّ العزَّ في النُقَلِ

- شرح الكلمات

- العُلا: الشرف والمكانة، ونسب الكلام إليها من باب المجاز.

- النُّقل: جمع نقلة، وهي الانتقال من مكان لآخر.

- معنى البيت

أن العلا والعزّ يكون في التنقل لطلب الرزق.

لو أنَّ في شرفِ المأوى بلوغَ مُنَىً | لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

- شرح الكلمات

- المأوى: المكان الذي يأوي إليه الإنسان.

- البلوغ: الوصول.

- المُنى: ما تتمناه النفس.

- لم تبرح: لم تتجاوز.

- دارة: ما يدور حوله الشيء.

- الحَمَل: أحد بروج الشمس الاثني عشر.

وبرج الحمل إذا جاءت الشمس فيه فهذا أوان الربيع.

- معنى البيت

يقيم الشاعر الحجة على ما سبق، فيقول: انظر إلى الشمس وهي عالية في أفق السماء، والجوّ وهي في برج الحمل ألطف جوّ، ومع ذلك لم تلزم بُرج الحَمل، فلو كان في بقائها شرف لبقت فيه.

أهبتُ بالحظِ لو ناديتُ مستمِعاً | والحظُّ عنّيَ بالجُهَّالِ في شُغُلِ

- شرح الكلمات

- أهبت: أهاب بالشيء أي ناداه وصاح به.

ومنه: أهاب الراعي بالغنم: أي دعاها وناداها.

- الحظ: النصيب، والمُراد به: الرزق.

- شُغل: الاشتغال بالشيء والالتهاء بأشياء الأخرى.

- لو ناديت مستمعًا: معناه استبعاد استماع الحظ إليه.

- معنى البيت

أن الشاعر نادى حظه ونصيبه، لكن الحظ مشغول بأهل الجهل والنقص.

ويُشير بهذا إلى أن أمور الدنيا ليست مرتبطة بالفضل والعلم.

ولذلك: الفقر في أهل العلم والعبادة أكثر فيهم من غيرهم.

لعلَّهُ إنْ بَدا فضلي ونقصُهُمُ | لعينهِ نامَ عنهمْ أو تنبَّهَ لي

- شرح الكلمات

- لعله: تعليل للنداء في البيت السابق.

- نام عني: أي تركني وأعرض عني.

- معنى البيت

أي لعل الحظ ينظر إلى ما بي من الفضل، وإلى ما ابتلي به الآخرون من النقص، لعله يتنبّه لي وينام عن الجهل.

أعلِّلُ النفس بالآمالِ أرقُبُها | ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمَلِ

- شرح الكلمات

- أعلل النفس: ألهيها.

- الآمال: جمع أمل، وهو ما يتمناه المرء ويرغب في حصوله.

- أرقبها: أرصدها وأنتظرها.

- لولا: حرف شرط يفيد امتنع شيء لوجود غيره.

- فسحة: سعة

- معنى البيت

أشغل نفسي في الدنيا بالآمال والرغبات، وأوسع على نفسي بهذا، والعمر محدود ومقصور، لولا أن الآمال تطولّه.

قال أحمد: ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كُمّي فسقط.

وقيل: لولا الآمال لانقطعت الأعمال.

وكلما شغف ابن آدم زاد أمله، قال ﷺ: (يكبر ابن آدم ويشبّ فيه اثنتان: حب الدنيا وطول الأمل).

وقال العماد الأصفهاني:

ولم أرَ شيئا مِثلَ دائرةِ المُنَى | تُوسِّعُها الآمالُ والعمرُ ضيِّقُ

والإنسان يحذر من طول الأمل، لأنه يُشغل عن الآخرة، قال تعالى عن الكفار: (ويلههم الأمل).

لم أرتضِ العيشَ والأيامُ مقبلةٌ | فكيف أرضَى وقد ولَّتْ على عَجَلِ

- شرح الكلمات

- العجل: من العجَلة، وهو ترك التأني.

وهو طبع في الإنسان، قال تعالى: (خلق الإنسان من عجل) أي: عجلة على قول الجمهور. وقال تعالى: (وكان الإنسان عجولا).

- معنى البيت

يقول: لم أركن إلى رغد العيش وأنا في شبابي وقوتي والدنيا مقبلة علي، فكيف أقبل عليها وقد ذهب شبابي وقوتي ودنا أجلي؟

ويؤخذ من هذا أن الإنسان ينبغي أن يكون أقرب لله في أيام مرضه أو شيبته.

غالى بنفسيَ عِرفاني بقيمتِها | فصُنْتُها عن رخيصِ القَدْرِ مبتَذَلِ

- شرح الكلمات

- غالى: أي زاد في قيمتها.

- عِرفاني: علمي.

- صنتها: حفظتها.

- مبتذل: حقير وممتهن.

- معنى البيت

الذي يدفعني إلى المغالاة بقيمة نفسي وصيانتها: معرفتي بقيمتها ومكانتها.

وكأن الناس يريدون أن يضعوه، وهو يريد أن يرفع نفسه، ولا يرضى لها الدّون.

وكل إنسان فإن الله كرّمه، فينبغي له أن يصون نفسه عما لا يليق به، قال تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم).

وعادةُ النصلِ أن يُزْهَى بجوهرِهِ | وليس يعملُ إلّا في يدَيْ بَطَلِ

- شرح الكلمات

- النّصل: حديدة السيف، أو الرمح، أو السهم.

- يزهو بجوهره: يُفتخر بصفاته الجوهرية وحقيقته.

- بطل: هو الشجاع.

- معنى البيت

العادة عند الناس أنهم يفخرون بالسيف بصفاته الجوهرية، لا بصفاته الظاهرية، كالغمد والجفن.

فهو يقول: أن يجعل الإنسان الأساس هو الاهتمام بالصفات الجوهرية، لا الظاهرية، كالغنى والمال، وغيره.

والسيف الصّقيل القوي لا يعمل ولا ينجح إلا إن كان بيد الشجاع القويّ، ولذلك فبناء الإنسان، قبل بناء السّنان.

المحاضرة السّابعة

ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني | حتى أرى دولةَ الأوغادِ والسّفَلِ

- شرح الكلمات

- أوثر: أصله من الإيثار، تفضيل الآخرين على النفس.

ولكنه في البيت: بمعنى الظنّ والاختيار.

- يمتد: يطول.

-زمني: أي عمري.

- دولة: غَلَبة.

- الأوغاد: جمع وغد، وهو الدنيء الضعيف السّاقط.

- السِّفَل: جمع سَفِلة، وهم أراذل الناس وحثالتهم.

- معنى البيت

أن الشاعر ما كان يظن أن الله يمد في عمري حتى أدرك ذهاب دولة الصالحين وإتيان دولة الأوغاد، ولو خُير الشاعر لاختار الموت.

قال الشاعر: وإذا تملك اللئام فالموت أحرى..

وقال القاضي عبدالوهاب المالكي:

إذا استوت الأسافل والأعالي | فقد طابت منادمة المنايا

تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ | وراءَ خطويَ إذ أمشي على مَهَلِ

- شرح الكلمات

- الشوط: الجري إلى الغاية.

- الخطو: نقل القدمين حالة المشي

- المهل: التأني وعدم السرعة

- معنى البيت

يبين الشاعر شيئًا من آثار دولة الأوغاد والسفل، وهو أن هؤلاء السفل تقدموا عليه مع فضله وديانته، مع أن شطوهم وجريهم لا يصل إلى خطوة من خطواتي.

هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا | من قَبْلِهِ فتمنَّى فُسحةَ الأجلِ

- شرح الكلمات

- جزاء: عاقبة

- أقرانه: الأقران جمع قِرن، وهو المكافئ النظير.

- درجوا: الدرج في الأصل هو المشية الثقيلة، ولذلك يُستعمل غالبًا في مشية الصّبي، والشيخ. واستعمل فيما بعد للموت، وهذا هو معنى الكلمة في البيت.

- معنى البيت

أن ما يلقاه من عواقب علوّ الأسافل وتسلطهم هو جزاء رجل مات أقرانه بينما تمنى هو بقاء حياته، وبقي هو يشعر بالغربة.

قال لبيد بن ربيعة:

ذَهَبَ الّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم | وَبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

وإنْ عَلانِيَ مَنْ دُونِي فلا عَجَبٌ | لي أُسوةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

- شرح الكلمات

- أسوة: قدوة، في الخير أو في الشر.

-زُحل: كوكب معروف، وسُمي بذلك من الزّحول، أي البعد، لأنه أبعد الكواكب.

- معنى البيت

يعزي الشاعر نفسه، بأنه وأن وصل إلى هذه المرحلة من تقدم الأسافل والأراذل عليه، فله أسوة بالشّمس، الذي يتقدّم عليها زحل، مع أنها أشرف مرتبة منه.

ويعزّي الشاعر نفسه بهذه الأمثلة، لأن الاشتراك في المصيبة يخفف ألمها، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي | على إخوانهم لقتلت نفسي

فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضَجِرٍ | في حادثِ الدهرِ ما يُغني عن الحِيَلِ

- شرح الكلمات

- اصبر: الصبر هو حبس النفس عن الجزع عند حدوث المصائب.

- محتال: من الاحتيال، وهو التوصل إلى شيء بخفاء.

- ضجر: صفة مشبهة من الضَّجر، وهو التبرم وضيق الصدر.

- حادث الدهر: ما يحدث فيه من الأفعال، ويُستعمل غالبًا في حوادث الشرّ.

- معنى البيت

إذا كانت طبيعة الدنيا متقلّبة، ولا تغنيك الحيل عن تغيير طبيعة الدنيا هذه، فإنها لن تتغير، بل قابل الأمر بالصّبر، فالصبر يغنيك عن الجزع.

أعدى عدوِّكَ أدنى من وَثِقْتَ به | فحاذرِ الناسَ واصحبهمْ على دَخَلِ

- شرح الكلمات

- أعدى: أفعل تفضيل بمعنى: أكثر عداوة.

وهذا شاذ لا قياس عليه، لأن أفعل التفضيل تُصاغ من الفعل الثلاثي.

- عدوك: العدو ضد الصديق.

- وثقت به: أعطيته ثقتك.

- حاذر الناس: عاملهم بحذر.

- دخل: الدّخل يُطلق على الغش والخديعة، ويطلق على كل شرّ أيضًا.

قال تعالى: (ولا تتخذوا أيمانكم دخلًا بينكم).

- معنى البيت

أن أشد الناس عداءً هم من وثق الإنسان بهم، فينبغي للإنسان أن يحذر منهم ولا يعاملهم إلا بغش واحتيال.

تعقيب: الشاعر الطغرائي يقول هذا المعنى لأنه أُصيب بمصيبة، وهو انقلاب أصحابه عليه، فعمّم الحكم لأجل ذلك.

فلا يعني البيت أن يعامل الإنسان الناس كلهم بالمكر والخديعة، وإنما يعاملهم بالخلق القويم، ويستصحب الحذر مع ذلك.

وإنّما رجلُ الدُّنيا وواحِدُها | من لا يعوِّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

- شرح الكلمات

- فإنما: صيغة تفيد الحصر.

-رجل الدّنيا: الشخص الذي لا نظير له.

- يعوّل: يعتمد ويستند.

-رجلٍ: التعميم، أي رجل.

- معنى البيت

أن رجل الدنيا الذي يصح أن يقال له هذا الوصف هو الذي لا يعتمد على أحد، بل يعتمد على الله عز وجل، ثم يعتمد على نفسه.

وقد كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا.

وحسنُ ظَنِّكَ بالأيام مَعْجَزَةٌ | فظُنَّ شَرّاً وكنْ منها على وَجَلِ

- شرح الكلمات

- معجَزة: صيغة «مَفعلة» تدل على الشيء الذي يكثر ويدفع إلى الوقوع في أصل الشيء.

أي: شيء يدفعك إلى العجز.

- وجل: الخوف.

قال تعالى: (وقلوبهم وجلة)، وقال: (قالوا لا توجل).

- معنى البيت

من عجز الإنسان وضعف خبرته أن يظنّ الخير بالدنيا، لأن من يخبر الأيام يعلم ما فيها من الشر.

فينبغي للإنسان أن يكون من الدنيا على خوف وحذر.

تعقيب: سوء الظنّ ينبغي أن يُقيّد ممن يغلب على حاله الشر، أما من يغلب عليه الخير فينبغي إحسان الظنّ به.

المُحاضرة الثامنة

غاضَ الوفاءُ وفاضَ الغدرُ وانفرجتْ | مسافةُ الخُلْفِ بينَ القولِ والعَمَلِ

- شرح الكلمات

- غاض: الغيض هو النقص.

ويأتي بمعنى: الذهاب الكلي للشيء.

- فاض: الفيض هو الزيادة.

ويقال: «غيض من فيض».

- الوفاء: الحفاظ على الودّ، وعكسه: الغدر.

- انفرجت: اتسعت.

- معنى البيت

يشكو أهل زمانه، وأنه زاد فيهم صفات الغدر، وقلت فيهم صفات الوفاء، واتسعت المسافة بين القول والعمل، فيستحسنون الوفاء ويدعونه، ويقبحون الغدر ويفعلونه.

وشانَ صدقَك عند الناس كِذبُهمُ | وهل يُطابَقُ معوَجٌّ بمعتَدِلِ

- شرح الكلمات

- شان: قبّح.

- الصدق: مطابقة الكلام للواقع.

- اعوج: اسم من الاعوجاج وهو الميل والانحناء.

- معنى البيت

من شيوع الكذب بين الناس: صار الصدق قبيحًا مشينًا.

واستفهامه بمعنى النّفي، أي: ليس الاعوجاج كالاعتدال.

إن كان ينجعُ شيءٌ في ثباتِهم | على العُهودِ فسبَقُ السيفِ للعَذَلِ

- شرح الكلمات

- ينجع: ينفع.

ومنه النُّجعة، أي طلب الكلأ للدواب، ومنه المثل: (أبعد النُّجعة).

ومنه المثل: (من أجدب انتجع).

- العذل: العِتاب واللوم.

- معنى البيت

أن هؤلاء الناس لا ينفعهم في ترك الغدر ولزوم العهد العتاب واللوم، وإنما ينفع فيهم السيف والقوة.

وقوله: (سبق السيف العذل) مثل مشهور، قصته: أن ضبّة بن أد كان راعياً يملك قطيعاً من الإبل، وكان لديه ابنان سعد وسعيد. وفي إحدى الليالي بدأت الإبل بالتفرق، فطلب ضبّة من ولديه إرجاعها، فرجع سعد ولم يعد سعيد.

ثم نزل ضبة ذات مرة عند رجل يقال له الحارث بن كعب، فحدثه الحارث بأنه قتل رجلًا، وأراه سيفه، فعرف ضبّة أن السيف سيف ولده، فقتل ضبّة الحارث، وأخذ بثأره، فعاتبه الناس لأنه قتله في الأشهر الحرم، فقال: (سبق السيف العذل).

يا وارداً سؤْرَ عيشٍ كلُّه كَدَرٌ | أنفقتَ عُمرَكَ في أيامِكَ الأُوَلِ

- شرح الكلمات

- يا واردًا: خطاب مفتوح، وهو منصوب لأنه نكرة غير مقصودة.

والوارد: اسم فاعل من الورود، وهو الإتيان إلى الشيء، ولا يلزم منه الدّخول، وتحتمل الكلمة المعنيان.

- سؤر: بقية الشيء.

ويقصد به: المشيب وما تبقى من عمر الإنسان.

- الأُوَل: جمع الأولى، وجاز جمعه بهذه الصيغة لكونه مؤنثًا مجازيًا.

- معنى البيت

يندب أيام الشباب التي ذهبت وكان فيها الصفاء، ويرثي أيام المشيب التي تبقت من العمر، وهي مرحلة الضّعف.

فيمَ اعتراضُكَ لُجَّ البحرِ تركَبُهُ | وأنتَ تكفيك منه مصّةُ الوَشَلِ

- شرح الكلمات

- اقتحامك: الاقتحام دخول الشيء فجأة بدون رويّة.

ومنه الحديث: (إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ أُمَّتي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوابُّ والْفَراشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ وأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ)

- لجّ البحر: معظمه.

- مص: الشرب بطرف الفم، وضده: العبّ.

ومنه الحديث: (لا تحرم المصة والمصتان)

- الوشل: الماء القليل الذي يتحدر من الأعلى.

ويُطلق أحيانا على الماء الكثير.

- معنى البيت

يقول الشاعر: ما حاجتك أن تقتحم الدنيا وأنت يكفيك منها القليل؟

وقد قال رسول الله ﷺ: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا) القوت: الرمق، وما يسدّ كفاف العيش.

قال الشاعر:

الجوعُ يطرد بالرغيف اليابس | فعلام تكثرُ حسرتي ووساوسي.

مُلكُ القناعةِ لا يُخشى عليه ولا | يحتاجُ فيه إلى الأنصارِ والخَوَلِ

- شرح الكلمات

- القناعة: بمعنى الرضا بالشيء اليسير

وقد تأتي بمعنى السّؤال والطلب.

وقد جعل بعض العلماء هذه الكلمة من الأضداد لهذا المعنى، وجعل بعضهم المعنى الثاني راجعًا إلى المعنى الأول، لأن السائل يرضى بالشيء اليسير.

- الأنصار: جمع ناصر، وهو المساعد والمُعين.

ومنه سمي الخزرج والأوس بالأنصار.

- الخول: الخدم والحشم والمال.

وأصله من التخويل، وهو الإعطاء، كما قال تعالى: (وتركتم ما خولناكم).

- معنى البيت

أن القناعة ملك، إلا أنه مُلك لا يحتاج إلى أنصار وجنود ومال كما هو مُلك الملوك.

ولذا قال ابن مسعود: (اقنع بما قسم الله تكن أغنى النّاس).

ومعنى البيت: أن العز بالقناعة، والفقر والذلّ بالحاجة، وكثير من الزلل يكون من العجلة، ولا يغتر الإنسان بطول العمر[1].

تَرجو البَقاء بدارٍ لَا ثَبَات لها | فهل سمعتَ بظلٍ غَير منتقلِ؟

- شرح الكلمات

- ترجو البقاء: تأمن الخلود في الدنيا.

- ظلّ: السواد الذي يوجد بسبب ضوء الشمس وحركتها.

قال تعالى: (ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا).

- معنى البيت

أن الدنيا كالظل الزائل، والظل متحرك وغير ثابت، لتعلقه بالشمس التي هي متحرّكة دائمًا.

قال التّهامي:

حكم المنيّة في البريّة جاري | ما هذه الدُنيا بدارِ قرارِ

[1] قال ﷺ: (شرفُ المؤمنِ قيامُه باللّيلِ، وعِزُّه استغناؤُه عن النَّاسِ).

طُبِعت على كدرٍ وأنتَ تُريدها | صفواً من الأقذاءِ والأكدارِ

وقال الخشّاب يرثي ابن يونس:

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه | حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا.

ويا خبيراً على الأسرار مُطّلِعاً | اصْمُتْ ففي الصَّمْتِ مَنْجاةٌ من الزَّلَلِ

- شرح الكلمات

- خبيرا: الخبير هو العليم بالشيء، الذي يعلمه بناء على اختبار وتجربة.

وفي قوله تعالى: (فسئل به خبيرًا).

قد رشَّحوك لأمرٍ إنْ فطِنتَ لهُ | فاربأْ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَلِ

- شرح الكلمات

-رشحوك: أعدوك وهيئوك.

وأصله في اللغة: أن الناقة تدفع بولدها من الخلف ليتقدّم، فكأن المرشّح يدفع من خلفه ليتقدّم.

- فطنت: الفطنة هي الذكاء وجودة الذهن.

- اربأ بنفسك: ارتفع بنفسك.

ومنه: الربوة، وهو المكان العالي.

- الهمل: الإبل المرسلة التي لا راعي لها.

- معنى البيت

أنهم هيئوك وأعدوك لأمر عال، فارتفع بنفسك وكن من خاصّة الناس، ولا ترض أن تكون مع عوامّ الناس.

وهناك معنى ثان زعم بعض العلماء أن الشاعر أراده، وهو أن الضمير في «رشحوك» عائد إلى الأعداء، أي أنهم أعدّوا شرًا، والمعنى الأول أظهر.